



## تأملات في معارج البيان القرآني .. العرش والهدهد

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: 20]

يدهشك البيان القرآني المحكم في التعبير، فينقلك إلى المشاهد وكأننا بين يدي نبي الله سليمان – عليه السلام- وكأننا نشاهد معه تفقده الطير، المعبر عن الحدث المغرق في الزمن الماضي بهذه الدقة في التعبير العجيب!

إنه تصوير بالكلمات والصيغ والعبارات ..

### تفقد الطير؟

ما غاب عنك؛ فقد فقدته، وما حضر فقد طلبته، يا لدقة التعبير وجمال التصوير! وبصيغة التفاعل الدالة على الحرص والقوة في البحث والتمحيص (تَفَقَّدَ) إشارة إلى القيادة المسؤولة التي تتفقد رعيته وتتبع ما يدور حولها، طير صغير في مملكة ملك عظيم من إنس ووجن وعوالم من المخلوقات!

إنها القيادة اليقظة المتنبهة المتتبعة لكل شؤون رعيته. وتفقد الطير، أجناسها المتنوعة المختلفة المتعددة!

ولم يحوجه التفقد لزمن طويل بل سارعت الفاء في الإشارة إلى سرعة الانتباه؛ فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟

بهذه الطريقة الذكية الفطنة في التعبير! وإشارات الدقيقة في سمات القيادة الحكيمة في التفكير.

وفي ذكر الطير هنا بالإفراد، دون سائر المخلوقات التي جندها الله له، إشارة كاشفة عن تفقده للإنس فلم يجد غائباً، وتفقده الجن كذلك، ثم الطير، بدلالة السباق من السياق في ذكر حشر الجند له، في قوله تعالى: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُۥ مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) [سورة النمل 17]

على الترتيب المذكور، وهذا من الإيجاز البليغ الذي لانظير له في غير القرآن!

وإنما كان ذلك لأن البيان المحكم ضرب صفحا عن ذكر ذلك؛ لشد الانتباه إلى موضع العناية من تفقده الطير؛ لاكتشاف غياب الهدهد، ثم تتوالى حبات عقد النظم وتتماسك في سرد الأحداث الجسام، التي ترتبت على ذلك، بهذا السبك البياني العجيب!

” فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ “



وأوجز البيان المحكم البديع كلما يفهم من السياق، ( فلم ير الهدهد فقال) والبلاغة الإيجاز، والقرآن يعرج بالأفهام ويوجز ما يفهمه الفكر من نظم الكلام، وذلك هو الارتقاء بالعقول والأفكار في تذوق فن القول، ومعجز البيان.

ذلك أنه اختصر من الكلام لحظة دهشة **نبي الله سليمان** فكان ” مَا لِي لَأَ أَرَى أَلْهُدْهُدَ ”، وفي الفاء دلالة المسارعة ونباهة الملك وقوة العارضة واليقظة.

وفي دقة النظم ” وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ” تقوية للفعل وتسليطه على جنس الطير؛ ليشملهم طيرا طيرا؛ ليجمع بين الدلالة المعجمية وقوة الصياغة الاشتقاقية، للدلالة على قوة التطلب والتفحص وإجالة النظر وتكراره بدقة.. ولما كان التفقد لما غاب وفُقد؛ ناسب النظم ذكره دون التفحص والتطلب، في هذا المقام.

## ” فَقَالَ مَا لِي لَأَ أَرَى أَلْهُدْهُدَ ”

والاستفهام البليغ هنا لم يكن عن عدم الرؤية ذاتها، بقدر ما كان منصبا على انتفاء السبب المانع للرؤية؛ فإذا انتفى السبب انتفى الوجود؛ لذلك كان هذا أكد وأبلغ في هذا المقام العجيب!

فكأنه يقول : لا سبب عندي يمنع من رؤية الهدهد من سائر ونحوه لو كان موجودا!

وفي إثارة السؤال إشراك لمن حضر مقامه المهاب في النظر والإجابة، وكأنهم شهود حال، وهذا أكد للمقال والحال..

ثم جاءت “أم ” المنقطعة في هذا المقال لتقرر ما ترجح لديه من غيابه. بقوله: ” أم كان من الغائبين ” أي : بل كان من الغائبين.

ولا يفهم من نظم البيان لهذه العبارة أن أفرادا أخرى من الطير ثبت غيابه؛ فهذا مدفوع ؛ لأن هذا من عادات القرآن الأسلوبية في مثل هذا المقام، أنه لا يذكر صاحب الوصف مفردا، وإنما يذكره مندرجا ومشمولا بغيره في الوصف.

من ذلك ما ورد في شأن امرأة العزيز ” ( إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ) [سورة يوسف 29]

و في شأن مريم ( وَكَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ) [سورة التحريم 12]

وفي موضع مخاطبة الهدهد نفسه ( أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ) [سورة النمل 27]



فغياب طائر صغير كهذا في **مملكة ني كريم**، وملك عظيم، دونما استئذان منه أو إعلام؛ يدرجه في مجموع الموصوفين بالغياب المتمكن منهم والمعيب.